

البحث فى الجذور

التقيت فى مطلع الثمانينات فى القرن الماضى فى فندق هيلتون ابوظبى على وجبة غداء مع الكاتب الامريكى الافريقى الاصل (أليكس هيلى) مؤلف الكتاب الشهير (الجذور).
و قد جاء بدعوة من جامعة الامارات العربية المتحدة لتقديم محاضرة عن الصراع العربى الاسرائيلى وكنت مشرفا على زيارة ميدانية لطالبات قسم علم النفس لمستشفى الطب النفسى بابوظبى.

لقد حدثنى باهتماماته فى البحث فى جذور الصراعات الانسانية و حوار الحضارات و قد المح لى فى ادب جم عن ضيق صدورنا فى النقاش المتانى و الانصات الجيد و الاستماع المتحضر للراى الاخر و احترام وجهة النظر المغايرة و شعرت انه يتحدث عن تجربة شخصية.

قال لى: اننى جئت ابحت فى الجذور... لا عن الجذور و الفارق بين (عن) و(فى) هو الفارق النوعى و الموضوعى بين (الوجود) و (العدم).. فالبحت عن المشكلة يعنى فرضية عدم وجودها اصلا اما البحث فى المشكلة يعنى الرجوع الى اصولها و علينا ان نحدد منهجنا فى البحث لاننا كثيرا ما نضيع فى متاهات (عن) و (فى) بدل آليات كيف و لماذا و الشيطان يكمن دائما فى التفاصيل.

و استتردد يقول: اننى من اصل افريقى زنجى عانيت من الاضطهاد العنصرى فى امريكا وفتحت لى نفسى درب الحوار مع الانسان و الشيطان على السواء و اينما وجدا... كتابة و شفاهة ..جيدة و ذهابا حتى وصلت الى محطة مضيئة فى قلب هذا النفق المظلم ووجدت ان أسوأ ظلمة توجد فى عقول صناع القرار والذين يرفضون كثيرا لغة الحوار لذلك اردت ان احمل هذه الشعلة و آتى بها الى هنا، هذا الجزء العزيز من اهل قضيتى... قضية التمسك بالحرية و الانتماء للجذور و اعرف سلفا ان هناك مشكلة تبحث عن حل عادل.

و اعرف ان اول مقومات البحث هى الحرية...حرية الارادة وحرية الحركة و حرية الكلمة و القدرة على التغيير وكل هذا يكمن فى الرغبة فى الحوار و ما لم نمتلك هذه الادوات فسوف يقع الصدام لا محالة بين الباحثين و المفكرين و القادة ثم الشعوب التى يئست من الانتظار و اتمنى الا يحدث هذا.... هنا طلبت منه بعض الطالبات التوقيع على أوتوغراف و ودعناه عائدين الى مدينة (العين).

تذكرت هذا و انا اتحدث عن العام الجديد و عيد الاستقلال و العاصمة الثقافية و اتفاقية السلام ووجدت ان الاصل فى الحوار ينبغى ان يدور حول البحث (فى) الجذور.. فلنا ثقافة نعتز بها ..عربية و افريقية و اسلامية و مزيج انسانى اخر ينبغى البحث فيه وربما لدينا اشكاليات فى بروتوكولات الاتفاقية قابلة للبحث و التطوير و مطروحة للاخذ و العطاء و لن يتم كل هذا الأمن خلال قنوات الحوار.. و الحوار يقتضى وجود اجواء صحية و مناخات نفسية معافاة من مشاعر الحقد و روح الثارات القديمة.

عود على بدء ..تذكرت هذا عندما تحدثت عن المجد الضائع للسودان فى الحلقة السابقة ولعل اكثر الزملاء من الاطباء النفسانيين السودانيين فى هذا الجيل قد لا يذكرون ربما يكون اول مؤتمر للطب النفسى العربى الافريقى قد عقد فى الخرطوم فى عام 1965

و قد تراس الاجتماع العالم الجليل الراحل البروفسير التجانى الماحى يساعده استاذ الجيل البروفسير طه بعشر امد الله فى عمره و متعه بالعافية و قد حضره من الشقيقة مصر البروفسير الراحل عمر شاهين استاذ الطب النفسى بالقصر العينى يرافقه تلميذه آنذاك و استاذ الجيل الحاضر البروفسير احمد عكاشه استاذ الطب النفسى بجامعة عين شمس و الرئيس الحالى للاتحاد العالمى للطباء النفسانيين كما حضره من الافارقة البروفسير (لامبو) استاذ الطب النفسى بجامعة (آبادان) فى نيجريا وقد وثقت لهذا الحدث فى كتابى (رحلتى مع الطب النفسى) والذى صدر اخيرا حتى لا نضيع فى البحث عن الجذور.

و قطعاً لم يصدقنى الاخوة الاطباء النفسانيون العرب و انا احدهم فى مؤتمر الدار البيضاء فى المملكة المغربية عام 1994. عن زيارة سيدة الغناء العربى أم كلثوم الى الخرطوم فى عام 1976 و هى تغنى للمجهود الحربى على خشبة المسرح القومى و البعثة الفنية العربية بقيادة الفرقة الماسية والبعثة الاثيوبية والصومالية عندما كانت الطيور الاريترية المهاجرة تغرد فى دوحة الخرطوم الظليلة التى تضم كل الوان الطيف من القرن الافريقى حتى اعماق افريقيا عند ما توجت هذه الزيارات مطربة افريقيا الاولى آنذاك (مريم ماكبا) و هى تغنى للسلام و(نلسون مانديلا) والذى خرج من غياهب سجون جنوب افريقيا ليعيد صياغة تاريخ القارة باكملها.

و قطعاً لم يصدقنى كثير من الاخوة العرب طوال سنوات الاغتراب فى الخليج و انا اردد الحديث عن زيارة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بعد النكسة و(لآت) الخرطوم التى اصبحت (لا شئ).. وكل يغنى على ليلاه ... ولم يحفل كثير منهم برواية الحديث عن عناق السحاب و الذى تم على يدى رائد الدبلوماسية السودانية الراحل و زير الخارجية محمد احمد محجوب بين جلالة العاهل السعودى الملك فيصل بن عبد العزيز وفخامة الزعيم جمال عبد الناصر بعد قطيعة ادمت قلوب كل العرب و استعصت على اهل العقد و الحل و تعجب اكثرهم عن الحديث عن مؤتمر القمة بالخرطوم بعد اعلان ميثاق باندونج لدول عدم الانحياز والذى ضم (سوكارنو) من اندونيسيا و (سيكتورى) من غينيا و(كوامى نكروما) من جمهورية (غانا).. أليست هذه النواة الحقيقية للوحدة العربية الافريقية الاسلامية منصهرة فى بوتقة واحدة وهدف واحد من اجل الحرية و السلام و العدالة.

ظلت هذه الاساطير التى احكيها والروايات الخرافية التى اكررها حبيسة داخل قلب مثقل بالام الوحشة والاعتراب مسكونا بالظنون حتى جاء الفرج و على غير ميعاد مع المغتربين و جزى الله الفضائية السودانية كل خير عندما حركت من صدرى صخرة (سيزيف) يوم ان اطلت من التلغاز برامج (من زمان.. و من الامس ..و من الماضى.. و من حيث لا نحتسب) ليعرض علينا الصديق الصدوق و الاعلامى المرموق البروفسير على شمو لقاء (أم كلثوم) و يتوالى تفسير الاحلام فى عرض زيارة عبد الناصر و أم كلثوم والمصالحة التاريخية بين الزعيمين الكبيرين والتى كانت نقطة تحول فى اعادة رسم خريطة الوطن العربى فى الشرق الاوسط.

هذا غيض من فيض وبعض ملامح المجد الضائع من ارشيف ذاكرة الجيل المعاصر و هي بعض الجذور الضاربة فى اعماق الارض والنابضة فى وجدان التاريخ.

يصدق فيها قول الشاعر العربى (الفرزدق) مخاطبا خصمه (جرير) و استبدل مفرداته ليقول:

ها هي جذورى فجئنى بمثلها اذا جمعتنا يا (جرير) المحافل

و لنا عودة باذن الله

دكتور الزين عباس عماره - أبوظبى